- 1 -

جمهوريون وديمقراطيون

في معظم الأيام، أدخل مبنى الكونغرس عبر القبو. إذ ينقلني قطار أنفاق صغير من هارت بيلدنغ، حيث يقع مكتبي، عبر نفق تحت الأرض تحفه أعلام وشعارات الولايات الخمسين. يتوقف القطار وأترجل منه لأشق طريقي عبر موظفين يعملون بنشاط، وطواقم صيانة، ومجموعات من الزوار تتجول في المبنى أحيانا، وصولا إلى المصاعد القديمة التي تحملني إلى الطابق الثاني. وحين أغادر المصعد ألوح للصحفيين المتجمعين عادة هناك، وألقي التحية على شرطة الكونغرس، وأدخل عبر مجموعة من الأبواب الضخمة المزدوجة إلى قاعة مجلس الشيوخ الأمريكي.

لا تعد القاعة أجمل مكان في مبنى «كابيتول هيل»، لكنها مهيبة مع ذلك. فلون الجدران البني المائل إلى الرمادي تغايره ألواح مستطيلة من الدامسكو الأزرق وأعمدة من الرخام المعرق الجميل. في حين يأخذ السقف شكلا بيضاويا حليبي اللون يربض في مركزه نسر أمريكي، وتنتصب فوق شرفة الزوار - بوقار ومهابة - تماثيل نصفية لأول عشرين رئيسا.

وتبرز من أرضية القاعة مئة من المنابر المتدرجة المصنوعة من خشب الماهوغني على شكل حدوة فرس من أربعة صفوف. بعض هذه المنابر يعود تاريخ صنعه إلى عام 1819، وفوق كل منبر دواة للحبر والريشة. وعند فتح درج أي منبر ستجد داخله أسماء الأعضاء الذين استخدموه ذات يوم - تافت ولونغ، ستينيس وكنيدي - خطتها أيديهم. في بعض الأحيان، حين أقف هناك، أتخيل بول دوغلاس أو هيوبرت همفري، يقف أمام واحد من هذه المنابر ويطالب بإلحاح بتبني تشريع الحقوق المدنية؛ أو جو مكارثي يبحث في اللوائح ويستعد لتسمية الأسماء ومهاجمة أصحابها؛ أو ال بي جي يتجول في الممرات خلسة، ويقبض على طيات صدور المعاطف ويجمع الأصوات. في أحيان أخرى، أذهب إلى المنبر الذي جلس أمامه ذات يوم دانييل ويبستر وأتخيله

يقف في الصالة المحتشدة بزملائه، في حين احمرت عيناه وهو يدافع بصوت مدو عن الاتحاد ضد قوى الانفصال.

لكن هذه اللحظات تبهت بسرعة. وباستثناء الدقائق القليلة المطلوبة للتصويت، لا نمضي أنا وزملائي وقتا طويلا في قاعة المجلس. ومعظم القرارات ــ المتعلقة بمشروعات القوانين والتعديلات عليها، وكيف يُقنع الأعضاء غير المتعاونين بالتعاون ـ يعمل عليها مقدما زعيم الأغلبية، ورئيس اللجنة المعنية، وموظفوهما، ونظراؤهم الديمقراطيون (اعتمادا على درجة الجدل الخلافي وشهامة تعامل الجمهوريين مع مشروع القانون). وبحلول الوقت الذي نصل فيه إلى قاعة المجلس ويبدأ الموظف المسؤول إعلان جدول الأعمال، يكون كل عضو قد قرر ـ بالتشاور مع طاقم مساعديه، ورئيس أعضاء حزبه، ومجموعات الضغط المفضلة، والدائرة الانتخابية، والميول الأيديولوجية ـ موقفه من القضية.

يساعد ذلك كله في تعزيز كفاءة العملية، ويقدر قيمته الأعضاء، الذين يعملون مدة اثنتي عشرة أو ثلاث عشرة ساعة ويريدون العودة إلى مكاتبهم لمقابلة الناخبين أو الرد على المكالمات الهاتفية، أو الذهاب لاجتماع مع المتبرعين في فندق مجاور، أو إلى الاستديو لإجراء مقابلة تلفزيونية على الهواء مباشرة. لكن إذا بقيت بعد أن تنفض الجلسة فلربما تجد عضوا وحيدا يقف أمام منبره، يسعى للحصول على الحق في إلقاء بيان في القاعة. قد يكون تفسيرا لمشروع قانون يقدمه، أو تعليقا أوسع على تحد لم تتم مواجهته على الصعيد الوطني. ربما يتفجر صوت المتحدث حماسة وقوة، وتبدو حججه ــ فيما يتعلق بتخفيضات ميزانية البرامج المخصصة للفقراء، أو اعتراضات على التعيينات القضائية، أو الحاجة إلى استقلالية الطاقة ـ دامغة ومفحمة. لكن المتحدث يخاطب قاعة خالية تقريبا، لا تضم سوى الضابط المسؤول، وبعض الموظفين، ومراسل يتابع أخبار مجلس الشيوخ، وعين كاميرا المحطة الكبلية التي لا تطرف. وحين ينتهي، يأتي حاجب يرتدي حلة زرقاء ويجمع صامتا البيان لتسجيله رسميا. عندها قد يأتي عضو آخر ويكرر الطقوس ذاتها.

في أعظم هيئة تشاورية في العالم، لا يصغي أحد إليك على ما يبدو.

ترك الرابع من كانون الثاني/ يناير 2005 ـ اليوم الذي قمت فيه، أنا وثلث أعضاء مجلس الشيوخ بأداء القسم بوصفنا أعضاء في الكونغرس التاسع بعد المئة ـ ذكرى مشوشة وجميلة في آن. كانت الشمس مشرقة، والهواء دفيئا (على غير العادة في الشتاء). احتشدت عائلتي والأصدقاء من الينوي وهاواي ولندن وكينيا في شرفة الزوار ليهللوا ويصفقوا حين وقفت أنا وزملائي الجدد جانب المنصة الرخامية ورفعنا اليد اليمنى لأداء قسم تسلم المنصب. في قاعة المجلس القديمة، انضمت إلي زوجتي، ميشيل، وابنتاي لالتقاط الصور التذكارية مع نائب الرئيس تشيني (صافحت ماليا التي كانت في السادسة آنذاك نائب الرئيس بوقار واحترام كما تقضي الشكليات، في حين قررت ساشا، وكانت في الثالثة، أن تدق كفها بكف تشيني قبل أن تلوح لآلات التصوير). بعد ذلك، شاهدت الطفلتين تنزلان درج مبنى الكابيتول الشرقي، وتطاير ثوباهما الوردي والأحمر مع نسمات الهواء اللطيفة، ولعبتا حول الأعمدة البيضاء المهيبة لمبنى المحكمة العليا. أمسكنا أنا وميشيل بأيديهما، ومشينا معا إلى مكتبة الكونغرس، حيث التقينا ببضع مئات من المهنئين الذين أتوا من مسافات بعيدة، وقضينا الساعات التالية نصافحهم ونعانقهم وتلتقط لنا الصور معهم ونوقع على دفاترهم.

كان يوما متخما بالابتسامات وكلمات الشكر، والمجاملات المؤدبة والاستعراضات الرائعة ـ هكذا بدا حتما لزوار الكابيتول. لكن حتى لو أظهر جميع سكان واشنطن أفضل سلوك عندهم في ذلك اليوم، وأكدوا جميعا استمرارية ديمقراطيتنا، فإن فضلة من الهواء الراكد الثقيل ظلت مخيمة على المكان، علامة على أن الجو الاحتفالي لن يدوم. فبعد ذهاب الأصدقاء إلى بيوتهم، وانتهاء الاحتفالات، واختباء الشمس خلف أستار الشتاء الرمادية، سيطرت على المدينة حتمية حقيقية وحيدة لا يمكن تغييرها على ما يبدو: البلد مقسم سياسيا، وكذلك واشنطن، إلى درجة لم يشهدها منذ عهد ما قبل الحرب العالمية الثانية.

بدت الانتخابات الرئاسية ومختلف المعايير والمقاييس الإحصائية وكأنها تؤكد الحكمة التقليدية. هنالك طيف واسع من القضايا التي يختلف عليها الأمريكيون: العراق، الضرائب، الإجهاض، الأسلحة، الوصايا العشر، الزواج المثلي، الهجرة،

التجارة، السياسة التعليمية، أنظمة وقواعد البيئة، حجم الحكومة، دور المحاكم. لم نكتف بالاختلاف الهادئ، بل تنازعنا بحدة، حيث لم يعد لدى الحزبيين على طرفي خط التقسيم أي ضوابط وكوابح في نقدهم اللاذع للخصوم وهجومهم الجارح على المناوئين. اختلفنا على مدى ومجال اختلافاتنا، وطبيعتها، ودواعيها. كل شيء أصبح محل خلاف، من سبب تغيير المناخ إلى حقيقة تغيير المناخ، ومن حجم العجز في الميزانية إلى المتواطئين الذين يجب تحميلهم مسؤولية العجز.

فيما يتعلق بي، لم يمثل أي من هذه القضايا مفاجأة تامة. فقد تابعت من قبل تصاعد حدة المعارك السياسية في واشنطن: إيران ـ كونترا واولي نورث، ترشيح بورك وويلي هورتون، كليرانس توماس وانيتا هيل، انتخاب كلينتون وثورة غينغريتش، وايت ووتر وتحقيق لجنة ستار، مساءلة الحكومة وإخضاعها للمحاكمة، قصاصات الورق التي تلقى من نوافذ المكاتب، بوش مقابل غور. وراقبت مع باقي الأمريكيين سرطان ثقافة الحملات الانتخابية ينتشر في مختلف أعضاء الجسم السياسي على شكل صناعة كاملة من الإهانة ــ الدائمة والمربحة إلى حد ما ــ برزت لتهيمن على محطات التلفزيون الكبلية، والأحاديث الإذاعية، ولائحة أفضل الكتب مبيعا في صحيفة نيويورك تايمز.

وعرفت طوال ثمانية أعوام في المجلس التشريعي لولاية الينوي أصول اللعبة. وبحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى سبرينغفيلد (عاصمة الينوي) عام 1997، كانت الأغلبية الجمهورية في مجلس شيوخ الولاية قد تبنت القواعد ذاتها التي كان رئيس المجلس غينغريتش يستخدمها للحفاظ على السيطرة المطلقة على مجلس النواب في الولايات المتحدة. وفي غياب القدرة على تبني أكثر الصيغ اعتدالا للجدل حول إدخال تعديلات على القوانين، فضلا عن تمريرها، اكتفى الديمقراطيون بالصراخ والصياح والاحتجاج والتذمر، ثم الوقوف عاجزين أمام الجمهوريين وهم يتبنون قانون خفض الضريبة على الشركات الكبرى، أو فرض ضرائب على القوة العاملة، أو تقليص الخدمات الاجتماعية. وبمرور الوقت، انتشر غضب يتعذر تهدئته بين الأعضاء الديمقراطيين، وكان زملائي يسجلون كل إهانة أو انتهاك يرتكبه الأعضاء

الجمهوريـون. بعد ست سنوات، سيطـر الديمقراطيون، لكن سلـوك الجمهوريين لم يتغير. بعض قدامى الأعضــاء يتذكرون بتشوق تلك الأيام التي كان فيها الجمهوريون والديمقراطيــون يلتقون على العشاء معا، ويتوصلون إلى التسويات وهم يتناولون قطع اللحم ويدخنون السيجار. لكن حتى مثل هذه الذكريات العزيزة لدى بعض هؤلاء تبهت بسرعة حـين يختارهم الناشطون السياسيون من الطـرف الآخر أهدافا لهجماتهم، ويرسلون إلى الناخبين في مناطقهم وابلا من الرسائل التي تتهمهم بمخالفة القانون، والفساد، والعجز وعدم الكفاءة، والدناءة الأخلاقية.

لا أزعـم أننـي بقيـت متفرجـا مستكينـا وسلبيا في خضـم ذلك كلـه. لقد فهمت السياســة بوصفها رياضة عنيفــة، ولم آبه للكم والركل والضـرب تحت الحزام. لكن تمثيلي لدائرة ديمقراطية حديدية أنقـذني من أسوأ انتقادات وطعنات الجمهوريين. بـين الحين والآخر، كنت أشارك حتى أشد المحافظـين من زملائي العمل على تشريع قانون، ونستنتج ونحن نلعب الورق أو نتناول قدحا من الجعة أن العوامل المشتركة بيننا تفـوق ما نعترف به علنا. وهــذا يفسر ربما سبب تشبثي طوال سنواتي في سبرينغفيلد بفكرة أن السياسة يمكن أن تأخذ صيغة مختلفة، وأن الناخبين يريدون شيئا مختلفا؛ وأنهـم سئموا التشويه والتحريــف، والسباب والشتائم والإهانــات، والحلول الوجيزة المؤقتـة للمشكلات المعقدة؛ وأنني لو استطعت الوصـول إلى هؤلاء الناخبين مباشرة، وتأطـير القضايـا كما أراها، وشرح الخيــارات بأسلوب صادق كمــا عرفته الآن، فإن فطرة الناس التي تدفعهم إلى النزاهة والمنطق البدهي السليم سوف تجمعهم حولي. وإذا ركـب عــدد كاف منهم هذه المخاطرة، كما حسبت، فلن تتغير سياسة البلاد نحو الأفضل فقط بل سياسات الأمة بأسرها.

بهــذه الذهنية دخلت سبــاق الترشح إلى مجلس الشيوخ عــام 2004. وطوال مدة الحملة بذلت قصارى جهدي لإعلان ما أفكر به، والمحافظة على نقائه، والتركيز على الجوهــر. وحين فزت بالانتخابات التمهيدية ثــم العامة، بهامش كبير، شعرت بإغراء الاعتقاد بأنني أثبت حجتي.

بقيـت مشكلة واحــدة: سارت حملتــي الانتخابية على ما يرام بحيــث بدت وكأنها رمية من غير رام. ولاحــظ المراقبون السياسيون أن المرشحين الديمقراطيين السبعة

في الانتخابات التمهيدية لم يعرضوا أي إعلانات سلبية على شاشة التلفزيون. وأغنى المرشحين، وهو تاجر سابق تناهز ثروته 300 مليون دولار، أنفق مبلغ 28 مليون دولار، معظمه على سلسلة من الدعايات الإيجابية، ولم تفقد الحملة اندفاعتها إلا في الأسابيع الأخيرة بسبب ملف طلاق مسيء فتحته الصحافة. أما خصمي الجمهوري، وهو رجل وسيم وثري كان شريكا لغولدمان ساكس، ثم عمل مدرسا في الأحياء الداخلية، فقد بدأ الهجوم على سجلي على الفور تقريبا، لكن قبل أن تنطلق حملته، اجتاحته فضيحة طلاق أخرى. وبقيت قرابة شهر أسافر في مختلف أنحاء الينوي دون أن أتعرض للهجوم، قبل أن يتم اختياري لإلقاء الخطبة الرئيسة أمام المؤتمر الوطني الديمقراطي ـ استمرت سبع عشرة دقيقة تبث على الهواء مباشرة دون انقطاع. وأخيرا، اختار الحزب الجمهوري في الينوي، دون تفسير معقول، المرشح السابق للرئاسة الان كيز خصما لي، مع أنه لم يقم في الينوي أبدا، وثبت أنه عنيف وعنيد في مواقفه إلى حد أن الجمهوريين أنفسهم كانوا يخشونه.

فيما بعد، عدني الصحفيون والمراسلون أكثر السياسيين حظا في الولايات الخمسين كلها. في السر، أعرب المساعدون العاملون معي عن سخطهم على هذا التقييم، لأنه يقلل من أهمية الجهد الذي بذلوه، وجاذبية رسالتنا. ومع ذلك، ليس ثمة ضرورة لإنكار حقيقة حظي السعيد. فقد كنت غريبا وخارجا عن المألوف؛ ولم يثبت انتصاري شيئا للسياسيين المطلعين على بواطن الأمور.

لا عجب إذن أنني شعرت، عند وصولي إلى واشنطن في شهر كانون الثاني/ يناير، كأنني لاعب هاو غرير ينضم إلى الدوري الممتاز، ويخرج بعد أول مباراة نظيف الملابس ويتشوق للعب مباراة أخرى مع أن زملاءه في الفريق قد لطخ الوحل ملابسهم وما يزالون يعالجون جراحهم. وفي حين كنت منهمكا ومشغولا بالمقابلات والوقوف أمام عدسات المصورين، ومترعا بالأفكار الأخلاقية السامية حول الحاجة إلى تقليص حدة الحزبية والنزاعات، كان الديمقراطيون يتعرضون للضربات عموما ـ الرئاسة، ومقاعد مجلس الشيوخ ومجلس النواب. لقد رحب بي زملائي الديمقراطيون الجدد أجمل ترحيب؛ ودعوا انتصاري واحدة من نقاطنا المضيئة القليلة. لكن في المرات، أو

عندما يخف النشاط في قاعة المجلس، كانوا يذكروني بالنمط الذي أصبحت تتخذه الحملات في مجلس الشيوخ.

أخبروني عن زعيمهم الذي سقط، توم داشل (داكوتا الجنوبية)، بعد أن تعرض لقصف حملات دعائية سلبية كلفت ملايين الدولارات ـــ منها إعلانات احتلت صفحات كاملة في الجرائد ودعايات تلفزيونية، تبلغ جيرانه كل يوم أنه يؤيد قتل الأطفال وارتداء الرجال أثواب الزفاف، بل إن بعضها أشار إلى أنه كان يسيء معاملة زوجته الأولى، على الرغم من حقيقة أنها سافرت إلى داكوتا الجنوبية للمساعدة على إعادة انتخابه. وتذكروا ماكس كليلاند، الذي شغل مقعد جورجيا، وخسره في الدورة السابقة بعد أن اتهم بعدم الوطنية، ومساعدة واسترضاء أسامة بن لادن، مع أنه من قدامى المحاربين في المعارك وبترت ثلاثة من أطرافه.

ثم هناك المسألة المتعلقة بجمعية سويفت بوت لقدامى المحاربين في سبيل الحقيقة: الكفاءة الصادمة التي يمكن عبرها للإعلانات الدعائية المناسبة وصيحات وسائل الإعلام المحافظة أن تحول بطلا خاض حرب فيتنام وتقلد وساما لشجاعته، إلى خائن مستسلم يسترضي العدو.

لا شك في أن هنالك جمهوريين شعروا بتعرضهم للإساءة وسوء المعاملة أيضا. وقد تكون افتتاحيات الصحف التي ظهرت في الأسبوع الأول من الجلسات على صواب؛ لربما حان الوقت لكي نضع الانتخابات خلفنا، ويتجاوز الحزبان العداوات بينهما، مدة سنة أو اثنتين على الأقل، والالتفات إلى حكم البلد. قد يكون ذلك ممكنا لو لم تكن الانتخابات على هذا القدر من التنافس، أو لم تكن الحرب في العراق مستعرة، أو لم تستهدف مجموعات الضغط، والخبراء والعارفون، ووسائل الإعلام تحقيق الكسب والمنفعة عبر الإثارة والتهييج. لربما كان السلام سينجو لو أن في البيت الأبيض إدارة مختلفة، إدارة أقل التزاما بشن الحملات الدائمة ـــ إدارة تعد انتصارا بنسبة 51 ـ 48 دعوة للتواضع والتسوية بدلا من تفويض لا يمكن دحضه.

لكن مهما كانت الشروط والظروف المطلوبة لمثل هذا الانفراج، إلا أنها لم تكن متوفرة عام 2005. لم تظهر أي إشارات على تنازلات أو صفاء النية. فبعد يومين

مــن الانتخابات، ظهر الرئيس بوش أمــام عدسات الكاميرات وأعلن أن لديه رأسمال سياسيــا وأنــه ينــوي استخدامه. وفي اليــوم ذاته، لاحــظ الناشط المحافــظ غروفر نوركويست، دون أن يكبحه الوقار المطلوب في منصبه أن «أي مزارع سيخبرك أن بعض الحيوانــات تكــره التجول بحرية، لكن حينما توضع في قفصــ تسعد وتهدأ»، وذلك في معرضــ الإشارة إلى وضع وحالة الديمقراطيين. وبعد يومين من أدائي القسم، وقفت عضــو الكونغرس ستيفــاني توبس جونز (مــن كليفلاند) في مجلســ النواب متحدية صحــة وموثوقيــة ناخبي اوهايو، مستشهــدة بالشكاوى من المخالفــات التي حدثت في الولاية يوم الانتخابات. وتجهم الأعضــاء الجمهوريون العاديون (وسمعتهم يتمتمون: «خاسرون فاشلون»)، لكن حدق كل من رئيس المجلس هاسترت وزعيم الأغلبية دي لاي من فوق منبره مكفهر الوجه، وبدا رابط الجأش وهو يعلم أنه يمتلك أغلبية الأصوات والمطرقــة. عضو مجلس الشيوخ باربرا بوكسر (من كاليفورنيا) قبلت التحدي، وحين عدنــا إلى قاعة المجلس، وجــدت نفسي أصوت أول مرة إلى جانــب ثلاثة وسبعين من أصل أربعة وسبعــين صوتوا في ذلك اليوم، لإعادة انتخاب جورج بوش رئيسا للولايات المتحدة لولاية ثانية.

تلقيــت أولى الاتصــالات الهاتفية والرســائــل السلبية بعد هذا التصويت. اتصلت ببعضــ أنصاري الديمقراطيين الساخطين، وأكدت لهــم أنني مطلع على المشكلات في اوهايــو، وأظن أن التحقيــق يجري بصورة منتظمة، لكنني مازلت أعتقد أن بوش فــاز في الانتخابــات، ولم أتخل عــن القضية ولم يجرفني التيــار، إذ لم ينقض سوى يومين على دخولي المجلس. في ذلك الأسبوع نفسه، قابلت صدفة السيناتور المتقاعد زيل ميلــر، الديمقراطي النحيل الحاد العينين (من جورجيــا) وعضو إدارة جمعية الســلاح الوطنية، الذي اختلف مــع الحزب الديمقراطي، ووافق علــى بوش، وألقى خطبــا لاذعة في مؤتمــر الحزب الجمهوري ــ تنتقد بأسلوب مسرحــي استعراضي خيانة جون كيري وضعفه المزعوم في مجال الأمن القومي. كان حديثا قصيرا ومليئا بالسخرية المبطنة ـ خروج الجنوبي العجوز، دخول الشمالي الأسود الشاب، والتغاير الــذي لاحظته الصحافة في خطبنا أمام المؤتمــر. كان السيناتور ميلر كريما وتمنى

لي حظا سعيدا في عملي الجديد. قرأت فيما بعد مقتطفات من كتابه «قلة أدب»، قال فيها إن خطبي أمام المؤتمر كانت من أفضل ما سمع في حياته، قبل أن يلاحظ — وتخيلت أن على وجهه ابتسامة ماكرة ـ إنها ليست الأكثر فاعلية فيما يتصل بالمساعدة على الفوز بالانتخابات.

بكلمات أخرى: خسرت أنا وفاز زيل ميلر. ذلك هو الواقع السياسي القاسي البارد، وكل ما عداه عواطف ومشاعر.

سوف تخبرك زوجتي أنني، بالطبيعة، لست شخصا ممن يستفزون أو يستثارون بسهولة. وحين أشاهد آن كوتلر أو شون هانيتي يصرخان ويصيحان على شاشة التلفزيون، يصعب علي أخذ أي منهما على محمل الجد؛ وأفترض أنهما يفعلان ذلك أساسا لترويج مبيعات كتاب ما أو تعزيز أهميته، مع أنني أتساءل: من يهدر أمسيته الثمينة مع شخص نكد وسيئ الطبع كهذين. عندما كان الديمقراطيون يؤكدون لي في بعض المناسبات ويلحون بإصرار على أننا نعيش في أسوأ العصور السياسية، وأن قبضة فاشية زاحفة تطبق على خناقنا، أذكر لهم احتجاز الأمريكيين من ذوي الأصول اليابانية في عهد فرانكلين روزفلت*، أو قوانين الأجانب والتحريض في عهد جون آدمز **، أو الإعدام بلا محاكمة على يد الغوغاء طوال مئات السنين وفي عهد عشرات الإدارات، بوصفها حالات أشد سوءا، وأقترح أن نأخذ جميعا نفسا عميقا. وحين كان الناس يسألونني في حفلات العشاء كيف يمكنني أن اشتغل في البيئة السياسية الحالية، مع كل الحملات السلبية والانتقادات والهجمات الشخصية، كنت أذكر نيلسون مانديلا، أو ألكسندر سولجنتسين، أو بعض الأشخاص في السجون الصينية أو المصرية. وفي الحقيقة، إن السباب والشتائم ليست أمرا سيئا ومهددا إلى هذا الحد.

ومع ذلك، لا أتمتع بالحصانة التامة من القلق والتوتر. وعلى شاكلة معظم الأمريكيين، أجد صعوبة هذه الأيام في التخلص من الإحساس بأن ديمقراطيتنا ضلت سواء السبيل وانحرفت إلى حد خطر.

---

* (1945-1882)، الرئيس الثاني والثلاثون للولايات المتحدة (1945-1933). (م).

** (-1735 1826)، الرئيس الثاني للولايات المتحدة (-1797 1801) وأحد زعماء الثورة الأمريكية. (م).

الأمر لا يقتصر على وجود فجوة بين مثلنا المعلنة التي نعترف بها كأمة وبين الواقع الـذي نشهـده كل يوم. بـل إن هذه الفجوة وجـدت بشكل أو بآخر منـذ ولادة أمريكا. فقد شُنت الحروب، وأصدرت القوانين، وأصلحت الأنظمة، ونظمت النقابات، وأعلنت الاحتجاجات في سبيل تقريب الوعد المأمول إلى الممارسة العملية.

لا أبـدا، فإن ما يقلق هو الفجوة بين اتساع حجـم التحديات التي تواجهنا، وضيق أفق سياستنا ـ السهولة التي يشتت بها انتباهنا بالتافه والسطحي، ومشكلتنا المزمنة المتمثلـة في تجنـب القرارات الصعبة، وعجزنا الظاهر عـن التوصل إلى إجماع عملي للتصدي لأي مشكلة كبرى.

نعلم أن التنافس العالمي ـ فضلاً عن أي التزام حقيقي بالقيم المرتكزة على الفرص المتساويـة والحـراك والارتقـاء ـ يتطلـب منا ترميـم وتجديده نظامنـا التعليمي من القمـة إلى القاعدة، وتحديث ورفـد هيئاتنا التدريسية، وبذل جهد مركز على تدريس الرياضيات والعلوم، وإنقاذ أطفال الأحياء الداخلية من الأمية. ومع ذلك فإن الجدل المحتـدم بيننا فيما يتعلـق بالتعليم يبدو أنـه محاصر بين الراغبـين في تفكيك نظام المدارس العامـة، والمدافعين عن الوضع القائـم الذي يتعذر الدفـاع عنه، بين الذين يقولـون إن المـال لا تأثير له في التعليم والذين يريـدون مزيدا من المال دون إظهار أنه سيستخدم في المكان المناسب.

نعـرف أن نظام الرعاية الصحية لدينا منهار: باهظ التكلفة، وعاجز إلى أبعد حد، وغير قادر على التكيف مع اقتصاد لم يعد مبنيا على الاستخدام مدى الحياة، نظـام يعرض الأمريكيين المجديـن في عملهم إلى حالة مزمنة مـن انعدام الأمان الاقتصـادي وربمـا يوصلهـم إلى حافة الفقر المدقـع. لكن سنة بعـد أخرى، أدت الإيديولوجية وفن الفوز على الخصوم إلى حالة من العطالة والشلل، باستثناء عام 2003، حـين أصدرنا قانون وصفات الدواء الذي جمع أسوأ ما في القطاعين العام والخاص ـ ارتفاع الأسعار والتخبط البيروقراطي، والفجوات في التغطية والفواتير المذهلة لدافعي الضرائب.

نعلم أن المعركة مع الإرهاب الدولي هي في الوقت ذاته صراع مسلح وحرب أفكار، وأن أمننا على المدى الطويل يعتمد على إبراز قوتنا العسكرية بأسلوب حصيف وحكيم وعلى زيادة التعاون مع الأمم الأخرى، وأن التصدي لمشكلات الفقر في العالم والدول الفاشلة أمر حيوي لمصالح أمتنا وليس مسألة إحسان وصدقة. لكن عند متابعة معظم الجدل فيما يتعلق بسياستنا الخارجية، قد تحسب أن أمامنا خيارين لا ثالث لهما: الحرب أو الانعزال.

نعتقد أن الدين مصدر للراحة والفهم، لكننا نجد تعبيراتنا عن الدين تزرع بذور الانقسام؛ نظن أننا قوم نتصف بالتسامح، حتى حين تهيمن على المشهد التوترات العرقية والدينية والثقافية العاصفة. وبدلا من حل هذه التوترات أو التوسط لتسوية هذه الصراعات، تعمل سياستنا على تأجيجها، واستغلالها، وزيادة الفرقة بيننا.

في السر، يعترف المسؤولون في الحكم بهذه الهوة الفاصلة بين السياسة التي نتبعها والسياسة التي نحتاجها. ومن المؤكد أن الديمقراطيين لا تسرهم الحالة الراهنة لأنهم على الأقل حاليا في الجانب الخاسر، وخاضعون للجمهوريين الذين يهيمنون، بفضل الانتخابات التي يأخذ فيها الرابح كل شيء، على كل فرع من الحكومة ولا يشعرون بالحاجة إلى التسويات والتنازلات. لكن يجب على العقلاء من الجمهوريين ألا يغالوا بالتفاؤل، فإذا واجه الديمقراطيون صعوبة في الفوز، فإن الجمهوريين لا يستطيعون الحكم، بعد أن كسبوا الانتخابات على أساس التعهدات والالتزامات التي تناقض الواقع غالبا (تخفيض الضرائب دون تقليص الخدمات، خصخصة الضمان الاجتماعي دون تغيير في المنافع، شن الحرب دون تقديم تضحيات).

لكن في العلن، يصعب العثور على من يراجع ضميره أو يتفحص ذاته على جانبي خط التقسيم، أو حتى أوهى اعتراف بالمسؤولية عن الأزمة المأزقية المتشابكة. وما نسمعه بدلا من ذلك، لا في الحملات فقط بل في افتتاحيات الصحف والكتب ومواقع الإنترنت، مجرد تحريف وتضليل وتحويل لوجهة النقد وتحميل المسؤولية. واعتمادا على الذائقة، يصبح وضعنا الراهن نتيجة طبيعية إما للمحافظين المتطرفين أو الليبراليين المنحرفين، توم دي لاي أو نانسي بيلوتشي، شركات النفط الكبرى أو

المحامـين الجشعـين، المتزمتين من المتدينين أو الناشطين مـن المثليين. محطة فوكس الإخباريـة أو صحيفـة نيويـورك تايمز. سوف تتفـاوت بلاغة رواية هـذه القصص، ومكـر ومراوغة الحجج المقدمة، ونوعية الأدلة والبيانات وفقا للكاتب، ولن أنكر ميلي إلى تفضيـل القصـة التي يرويها الديمقراطيـون، ولا اعتقادي أن حجـج الليبراليين مؤسسة غالبا على المنطق والحقيقة. لكن التفسيرات والشروحات في صيغها المصفاة التـي يقدمها اليمين واليسار كلاهمـا أصبحت صورا مرآوية لكل منهما. إنها قصص المؤامـرة، وأمريكا التي يختطفها متآمر شريـر. وعلى شاكلة جميع نظريات المؤامرة، تضـم حكايات الطرفين ما يكفي مـن الحقيقة لإرضاء أولئـك المستعدين لتصديقها أصلا، دون الاعتراف بأي تناقضات قد تزعزع ركائز تلك الافتراضات. فهدفها ليس إقناع الطرف الآخر بل الإبقاء على القواعد الشعبية مهتاجة ومتيقنة صوابية قضاياها ـ واستمالة وغواية أنصار جدد لإجبار الطرف الآخر على الخضوع والاستسلام.

هنالـك بالطبع قصة أخـرى تروى، من جانب ملايـين الأمريكيين الذين يذهبون إلى أعمالهـم ووظائفهـم كل يوم، أو الذيـن يبحثون عن عمل، أو يبـدؤون مشاريعهم التجاريـة، أو يساعـدون أطفالهـم في كتابة واجباتهـم المنزلية، ويكافحـون ويعانون فواتير الغاز المرتفعة، وعدم كفاية الضمان الصحي، والتعويض التقاعدي التي جعلته بعض محاكـم الإفلاس غير قابـل للتطبيق. وهـم بدورهم يملؤهم الأمـل ويضنيهم الخوف مـن المستقبل. وحياتهم متخمة بالتناقضات والغموض. ولأن السياسة لا تعبر كثيرا عن معاناتهم ـ حيث السياسة اليوم تجارة لا رسالة، وليس الجدل المحتدم سوى مشهد مسرحي استعراضي ـ فهم يتحولون إلى الداخل، بعيدا عن الضجيج والصخب والغضب واللغو الذي لا نهاية له.

المطلـوب من الحكومـة التي تمثل حقا هـؤلاء الأمريكيين ـ وتخدمهـم فعلا ـ نوع مختلف من السياسة. نوع يحتاج إلى التعبير عن حياتنا كما نعيشها على أرض الواقع. ولـن يكـون مسبق الصنع، يمكن سحبه من على الرف، بـل يجب أن يشيد على أفضل مـا في تقاليدنـا التراثية ويفسر الجوانـب المظلمة في ماضينا. نحـن بحاجة إلى فهم كيـف وصلنا إلى هذا المـكان، أرض الفصائل المتحاربة والقبائـل المتصارعة. وسوف

نحتاج إلى تذكير أنفسنا، على الرغم من اختلافاتنا، بالعوامل المشتركة بيننا: الآمال والأحلام روابط لا ينفصم عراها.

من أول الأمور التي لاحظتها عند وصولي إلى واشنطن الود (النسبي) الذي يتمتع به أعضاء مجلس الشيوخ الأكبر سنا: اللطف الدائم الذي يحكم كل علاقة تفاعلية بين جون وارنر وروبرت بيرد، أو الرابطة الحقيقية من الصداقة التي تجمع الجمهوري تيد ستيفنز والديمقراطي دانييل اينوي. كان من الشائع القول إن هؤلاء الرجال يمثلون بقية جيل منقرض، رجال لا يحبون المجلس فقط لكنهم يجسدون السمة التي هي أقل تزمتا حزبيا في السياسة. وهي في الحقيقة واحدة من السمات القليلة التي يتفق عليها المعلقون المحافظون والليبراليون، إنها حقبة ما قبل السقوط، العصر الذهبي في واشنطن، حين سادت الدماثة والتهذيب وأدت الحكومة واجبها، بغض النظر عن الحزب الموجود في السلطة.

في حفل استقبال أقيم في إحدى الأمسيات، بدأت حديثا مع أحد المساعدين الذين عملوا في «الكابيتول» وحوله طوال خمسين سنة تقريبا. سألته عن رأيه بالسبب الكامن وراء اختلاف الجو بين أمس واليوم.

أجاب دون تردد: «اختلاف الأجيال. ففي ذلك الحين، كان كل مسؤول في واشنطن تقريبا قد خدم في الحرب العالمية الثانية. ربما تجادلنا وتنازعنا باستمرار حول القضايا. والعديد منا أتوا من خلفيات وأحياء متباينة، وتبنوا فلسفات سياسية مختلفة. لكن الحرب مثلت عاملا مشتركا بيننا. لقد تطورت التجربة المشتركة إلى نوع من الثقة والاحترام. وساعدتنا على العمل والإنجاز على الرغم من الخلافات بيننا».

حين كنت أستمع إلى الرجل وهو يسترجع ذكرياته، عن دوايت ايزنهاور وسام ريبيرن، ودين اتشسون وايفريت ديركسن، صعب علي مقاومة اكتساح الصورة الضبابية التي رسمها، عن زمن سبق الأخبار المستمرة مدة أربع وعشرين ساعة، وعن جمع التبرعات دون توقف، زمن الرجال الجادين وهم ينجزون عملهم الجدي

المحفوف بالخطر. ذكرت نفسي بأن حبه لهذه الحقبة السالفة شمل ذكريات انتقائية معينة: فقد مسح من الصورة اللجان الحزبية الجنوبية وهي تدين تشريع الحقوق المدنية المقترح في قاعة المجلس؛ والقوة القادرة للمكارثية؛ والفقر المخدر والمدقع الذي سلط عليه الضوء بوبي كنيدي قبل مقتله؛ وغياب النساء والأقليات عن مركز صنع القرار.

أدركت أيضا أن مجموعة من الظروف الفريدة ضمنت استقرار الإجماع الحاكم الذي كان جزءا منه: لا مجرد التجربة المشتركة في الحرب، بل الإجماع شبه العام الذي تشكل نتيجة الحرب الباردة والتهديد السوفييتي، وربما الأهم، الهيمنة التي لا تضاهى للاقتصاد الأمريكي خلال الخمسينيات والستينيات، بينما كانت أوروبا واليابان تخرجان من ركام ما بعد الحرب.

ومع ذلك، لا يمكن إنكار أن السياسة الأمريكية في سنوات ما بعد الحرب كانت أقل تمسكا بالأيديولوجيا ـ ومعنى الارتباط بالحزب أقل تحديدا وتبلرا ـ مقارنة بالحال اليوم. فالتحالف الديمقراطي المسيطر على الكونغرس طوال معظم هذه السنوات كان خليطا من الليبراليين الشماليين، مثل هيوبرت همفري، والديمقراطيين الجنوبيين المحافظين، مثل جيمس ايستلاند، والموالين الذين ترقيهم الآلات الانتخابية في المدن الكبيرة. أما ما جمع هذا التحالف معا فكان الشعبوية الاقتصادية للبرنامج الجديد ـ رؤية للأجور والمنافع العادلة، والرعاية والأشغال العامة، ومستوى المعيشة الذي يرتفع باستمرار. وفيما وراء ذلك، رعى الحزب ونمى فلسفة «عش ودع الآخرين يعيشون»: فلسفة اتصلت اتصالا وثيقا بالخضوع للقمع العنصري في الجنوب أو بترويجه وتشجيعه؛ فلسفة اعتمدت على ثقافة أكثر اتساعا، حيث المعايير الاجتماعية ـ طبيعة الجنسانية، مثلا، أو دور المرأة ـ لا تخضع للمساءلة غالبا؛ ثقافة لم تمتلك بعد المفردات اللازمة لإثارة الانزعاج والقلق، فضلا عن الجدال السياسي، حول مثل هذه القضايا.

أظهر الحزب الجمهوري أيضا طوال الخمسينيات وأوائل الستينيات تسامحا مع أنواع التصدعات والانقسامات الفلسفية ـ بين ليبرتارية باري غولدووتر الغربية

وأبويـة نيلسـون روكفلر الشرقيـة؛ بين الذيـن استدعوا التوجه الجمهـوري لابراهام لينكولـن وتيـدي روزفلت، الذي اعتنـق النشاطيـة الفيدرالية، وأولئـك الذين اتبعوا التوجه المحافظ لادموند بيرك، الذي فضل التقليد التراثي على التجريب الاجتماعي. ولم تكن عمليـة مواءمة هذه الاختلافات الإقليمية/ المناطقيـة والمزاجية، فيما يتعلق بالحقـوق المدنية والتنظيم الاتحـادي أو حتى الضرائب، منسقة ولا مرتبة. لكن مثلما هـي الحال مـع الديمقراطيـين، كانت المصالـح الاقتصادية هي التـي تربط الحزب الجمهوري معا عبر فلسفة الأسواق الحرة والتحفظ المالي التي يمكن أن تجتذب جميع أجزائـه التكوينية وشرائـح ناخبيه، من صاحب المتجر في الشـارع الرئيس إلى مدير النادي الريفي (ربما اعتنق الجمهوريون أيضا شعارا أشد تحمسا في معاداة الشيوعية في الخمسينيات، لكن مثلما أثبت جون كنيدي، كان الديمقراطيون على أتم الاستعداد لتجاوز الجمهوريين في هذا الصدد كلما اقترب موعد الانتخابات).

الستينيـات هـي التي أنهت هـذه الاصطفافات السياسية، لأسبـاب وبطرق تتالت زمنيـا وتاريخيا بترتيب منطقي. ظهـرت أولا حركة الحقوق المدنية، التي تحدت حتى في أيامهـا الهادئة المبكرة، أساس البنية الاجتماعية القائمة وأجبرت الأمريكيين على تحديـد موقفهم. في نهاية المطاف، اختار لينـدون جونسون الجانب الصحيح في هذه المعركة، لكن بوصفه ابن الجنوب، فهم أكثر من غيره التكلفة المتضمنة في هذا الخيار: حـين وقع قانون الحقوق المدنية عام 1964، قال لمعاونه بيل مويرز: إنه بجرة قلم سلم الجنوب إلى الحزب الجمهوري في المستقبل المنظور.

ثـم أتت الاحتجاجـات الطلابية على حرب فيتنام وبرزت الإشـارة إلى أن أمريكا ليست دائما على حق، وأن أعمالنا ليست مبررة على الدوام - وأن هناك جيلا جديدا لن يدفع أي ثمن أو يحمل أي عبء، يفرضهما زعماء من أجيال سابقة.

وبعدئـذ، مع اختراق جـدران الوضع السائـد، عبر كل شكل من أشـكال «الغريب اللامنتمي» البوابات: النسويات، والأمريكيون من ذوي الأصول اللاتينية (سندعوهم اللاتين في هـذا الكتاب)، والهيبيـون، والفهود السود، والأمهـات المحتاجات للمعونة

الاجتماعية، والمثليون، وجميعهم يؤكدون حقوقهم ويصرون على الاعتراف بهم، ويطالبون بمقعد على الطاولة وقطعة من الكعكة.

سيتطلب الأمر عدة سنوات ليبرز المنطق الكامن وراء هذه الحركات. غلت إستراتيجية نيكسون الجنوبية، وتحديه لنظام نقل الطلاب إلى المدارس البعيدة لأسباب تتعلق بالتمييز العنصري كما أمرت به المحاكم، وجاذبيته للأغلبية الصامتة، أرباحا انتخابية فورية. لكن فلسفته في الحكم لم تتحول أبدا إلى أيديولوجيا راسخة ومتماسكة ــ فنيكسون على الرغم من كل شيء هو الذي ابتدأ أول برامج لتشجيع تمثيل النساء والأقليات (خصوصا في الاستخدام) على المستوى الاتحادي ووقع على إنشاء وكالة حماية البيئة وإدارة الأمان الوظيفي والمهني والصحي لتصبح قوانين سارية. وسيثبت جيمي كارتر إمكانية جمع وموالفة دعم الحقوق المدنية مع الرسالة الديمقراطية المحافظة تقليديا؛ وعلى الرغم من الانشقاقات في صفوف الديمقراطيين الجنوبيين من أعضاء الكونغرس، إلا أن الذين اختاروا البقاء في الحزب سيحتفظون بمقاعدهم اعتمادا على قوة مؤهلاتهم، وهذا ما ساعد الديمقراطيين على الاحتفاظ بالسيطرة على مجلس النواب على الأقل.

لكن الصفائح التكتونية لأمريكا تحركت. إذ لم تعد السياسة مجرد قضية تتعلق بالمال فقط بل بالأخلاق أيضا، حيث أصبحت تخضع لضرورات أخلاقية ومطلقات معنوية. السياسة أمر شخصي حتما لكن تدس أنفها في كل علاقة تفاعلية ـ بين السود والبيض أو الرجال والنساء مثلا ـ وتتورط في كل توكيد للسلطة أو رفضها.

ووفقا لذلك كله، جرى تعريف الليبرالية والمحافظة في المخيال الشعبي بواسطة الطبقة لا الموقف ـ الموقف الذي يتخذ إزاء الثقافة التقليدية والقوى المضادة للثقافة. وما كان مهما لم ينحصر في الموقف من الحق في الإضراب أو ضريبة الشركات، بل شمل الموقف من الجنس أو المخدرات أو موسيقى «روك اند رول»، أو القداس اللاتيني، أو القانون الكنسي الغربي. وفيما يتعلق بالناخبين الاثنيين البيض في الشمال، والبيض في الجنوب عموما، لم تكن هذه الليبرالية الجديدة تعني الكثير. فالعنف في الشوارع والذرائع التبريرية لهذا العنف في أوساط المفكرين والمثقفين، وانتقال السود ليسكنوا

في المنزل المجاور ونقل تلاميذ المدارس البيض في الحافلات إلى مناطق أخرى، وحرق الأعلام والبصق على المحاربين القدماء، بدا ذلك كله إهانة وتجنيا، إن لم يكن هجوما علـى هذه الرموز ـ الأسرة والدين والعلم والحي والمزايا المقتصرة على البيض ـ التي يقدرها ويجلها هـؤلاء (الناخبون البيض في الشمال والبيض في الجنوب عموما). في خضـم هذه الحقبـة التي انقلبت فيها الأمـور رأسا على عقب بعـد الاغتيالات وحرق المـدن والهزيمة المنكرة والمـرة في فيتنام، حين أفسح التوسـع الاقتصادي المجال إلى خطـوط الغاز والتضخم وإغلاق المنشآت والمصانـع، وكان أفضل ما يقدر عليه جيمي كارتـر هو اقتراح خفض ضوابط درجة الحـرارة، واستطاعت حفنة من الراديكاليين الإيرانيين إضافة الملح إلى الجرح المفتوح الذي سببته منظمة البلدان المصدرة للنفط (أوبك) ـ بدأ جزء كبير من تحالف البرنامج الجديد يبحث عن بيت سياسي آخر.

شعـرت دومـا بعلاقـة غريبـة تربطني بحقبـة الستينيـات. وبمعنى مـن المعاني، أنـا نتـاج صرف لتلك الحقبة: كطفـل ولد من زواج مختلط، كانـت حياتي مستحيلة، وفرصـي معدومة كلية، لولا الثـورات والاضطرابات الاجتماعية التـي حدثت آنذاك. لكن كنت صغيرا حينها ولم أفهم تماما طبيعة تلك التغييرات، وبعيدا جدا ـ في هاواي وإندونيسيا ـ عن رؤية آثارها وتبعاتها على روح أمريكا. معظم ما تشربت به من حقبة الستينيـات أتى عبر والدتـي، التي ظلت حتى اليوم الأخير مـن حياتها فخورة بكونها ليبرالية لم تعد صياغة أفكارها. إذ استلهمت احترامها من حركة الحقوق المدنية على وجـه الخصوص؛ وكلما سنحـت الفرصة كانت تغرس فيّ القيـم التي وجدتها هناك: التسامح، والمساواة، والدفاع عن المحرومين والمضطهدين.

لكـن فهم والدتي لحقبة الستينيات كان محدودا من جوانب عديدة، بسبب بعدها المـكاني (غـادرت الـبر الأمريكي عـام 1960) ورومانسيتهـا الـودودة العنيدة. على الصعيـد الفكري، ربمـا حاولت فهم «القـوة السوداء»، أو منظمـة «الطلاب من أجل مجتمـع ديمقراطـي»، أو أولئك النسوة من صديقاتها اللاتـي توقفن عن إزالة الشعر عـن سيقانهن، لكن غابت مشاعر الغضـب وروح المعارضة عن نفسها. وعلى الصعيد العاطفـي/ الوجداني، بقيت ليبراليتها تنتمي انتماء حاسمـا إلى ما قبل عام 1967،

وكان قلبها مثل «كبسولة الزمن»*، مترعا بصور برنامج الفضاء، وفيلق السلام، و«ركاب الحرية»**، ومهيليا جاكسون ***، وجوان باييز ****.

ولم أتمكن إلا بعد أن تقدم بي العمر (خلال السبعينيات) من تقدير الدرجة التي بدأت عندها الأمور تخرج عن زمام السيطرة - في نظر أولئك الذين خبروا بطريقة مباشرة أحداث الستينيات وما أفرزته من عوامل أثرت في التطورات اللاحقة. فهمت ذلك، جزئيا، عبر تذمر جدي وجدتي (لأمي)، وكانا من الديمقراطيين المخلصين الذين اعترفوا بأنهم صوتوا لمصلحة نيكسون عام 1968، وهو فعل عدته والدتي خيانة محرجة لا يمكن أن تنسى. أتى فهمي لحقبة الستينيات على الأغلب نتيجة استقصاءاتي الخاصة، حين سعى تمرد المراهقة لدي إلى تبرير للتغيرات السياسية والثقافية التي بدأت تنحسر آنذاك. في سنوات المراهقة، سحرتني سمة الحقبة الديونيسية المتاحة لمن يشاء، وتشربت بواسطة الكتب والأفلام والموسيقى برؤية للستينيات مختلفة اختلافا كبيرا عن تلك التي تحدثت عنها أمي: صورة هيوي نيوتن، والمؤتمر الوطني الديمقراطي عام 1968، والفرار بالحوامات من سايغون، والصخور في التامونت. ومع أنه لم يكن لدي أسباب مباشرة للثورة، إلا أنني قررت أن أصبح ثائرا في الأسلوب والموقف، دون أن تكبلني الحكمة الراسخة لمن هم فوق الثلاثين من العمر.

في نهاية المطاف، تسرب رفضي للسلطة إلى الانغماس في شؤون الذات وإلى تدمير الذات، وبحلول الوقت الذي التحقت فيه بالجامعة بدأت أرى كيف يضمر كل تحد للتقليد السائد احتمال الغلو والإفراط وإمكانية التشدد والتزمت. شرعت في إعادة تفحص افتراضاتي، وتذكرت القيم التي تعلمتها من أمي وجدي وجدتي. وفي هذه العملية البطيئة المتقطعة لفرز معتقداتي، بدأت بأسلوب صامت تسجيل النقطة في

* حاوية تضم وثائق وأشياء تميز الحقبة الراهنة، تدفن في الأرض لتكتشفها أجيال المستقبل. (م)

** مناهضون لسياسة الفصل العنصري في المرافق العامة قاموا برحلات بالحافلات إلى ولايات الجنوب الأمريكي خلال ستينيات القرن العشرين. (م)

*** (1911 - 1972)، منشدة تراتيل إنجيلية شهيرة في الولايات المتحدة. (م)

**** مغنية شعبية أمريكية ولدت عام 1941. (م)

الأحاديث التي دارت في مهاجع النوم حين كنا أنا وزملائي في الجامعة نتوقف عن التفكير وننزلق إلى مستوى اللغة الطنانة والرياء والتظاهر: النقطة التي تأتي عندها إدانات الرأسمالية أو الإمبريالية الأمريكية بسهولة، وتُعلن الحرية من قيود الزواج الأحادي أو الدين دون فهم كامل لقيمة مثل هذه القيود والكوابح، ويُعتنق دور الضحية بأسلوب جاهز كوسيلة للتهرب من المسؤولية، أو توكيد الحق المخول، أو ادعاء التفوق الأخلاقي على أولئك الذين لا يعدون من الضحايا.

ربما يفسر ذلك كله، السبب الذي جعلني أتفهم جاذبية رونالد ريغان، على الرغم من القلق الذي سببه انتخابه رئيسا عام 1980 (وعدم اقتناعي بجون واين في فيلم «الأب أفضل من يعرف»)، وسياسته القائمة على الطرائف والحكايات المسلية، وهجومه دون مبرر على الفقراء. فهي الجاذبية نفسها التي شعرت بها إزاء القواعد العسكرية في هاواي حين كنت صبيا، بشوارعها المنظمة النظيفة ومعداتها الحديثة، والبذات والتحيات العسكرية السريعة والواثقة. وهي تتصل بالمتعة التي ما أزال أشعر بها عند مشاهدة مباراة جميلة بالبيسبول، أو باستمتاع زوجتي عند مشاهدة برنامج «ديك فان دايك» خاطب ريغان تشوق أمريكا إلى النظام، وحاجتنا إلى الإيمان بقدرتنا على صياغة مصائرنا الفردية والجمعية، ما دمنا نستطيع إعادة اكتشاف الفضائل التقليدية: العمل الجاد والدؤوب، وحب الوطن، والمسؤولية الشخصية، والتفاؤل، والإيمان.

قدرة رسالة ريغان على العثور على تلك الآذان المصغية لم تثبت مهارته الاتصالية فقط؛ بل دلت أيضا على فشل الحكم الليبرالي، خلال حقبة من الركود الاقتصادي، في تزويد ناخبي الطبقة الوسطى بأي إحساس بأنه يحارب من أجلهم. لأن الحكومة على كل مستوى أصبحت مغالية في تعجرفها فيما يتعلق بإنفاق أموال دافعي الضرائب. وفي كثير من الأحيان، أغفلت البيروقراطيات كلفة التفويض الذي منح لها. وبدا معظم الخطاب البلاغي الليبرالي أنه يقدر قيمة الحقوق أكثر من الواجبات والمسؤوليات. ربما بالغ ريغان في تضخيم ذنوب وخطايا دولة الرعاية الاجتماعية، وكان الليبراليون على حق بالتأكيد في الشكوى من أن سياسته المحلية تحابي بشدة النخب الاقتصادية،

حيث حقق الذين استولوا على الشركات مرابح كبيرة طوال الثمانينيات، في حين تفتت النقابات وبقي دخل العمال العاديين على مستواه المنخفض ذاته.

ومع ذلك، قدم ريغان للأمريكيين، عبر الوعد بالوقوف إلى جانب أولئك الذين يعملون ويكدحون، ويطيعون القانون، ويهتمون بأسرهم، ويحبون وطنهم، إحساسا بالهدف المشترك الذي لم يعد الليبراليون قادرين على تحقيقه. وكلما تعاظم اعتراض منتقديه بالغوا في لعب الدور الذي رسمه لهم ـ عصبة من النخب الجاهلة، المبذرة، التي تلقي اللوم على أمريكا أولا، وتدعي الصوابية السياسية.

ما وجدته لافتا ومشهودا ليس نجاح تلك الصيغة السياسية التي طورها ريغان آنذاك، بل ديمومة الرواية السردية التي ساعد في ترويجها. وعلى الرغم من مضي أربعين سنة على حقبة الستينيات، ما زال ضجيجها وصخبها وردود الأفعال اللاحقة تحرك خطابنا السياسي. فهي تؤكد في جزء منها مدى عمق الإحساس بصراعات الستينيات لدى جيل من الرجال والنساء بلغوا سن الرشد آنذاك، والدرجة التي بلغها فهم حجج وأدلة الحقبة لا كمجادلات ومنازعات سياسية فقط بل كخيارات فردية حددت الهوية الشخصية والموقف الأخلاقي.

أفترض أنها تسلط الضوء أيضا على حقيقة أن القضايا الحاسمة في أهميتها التي شكلت بؤرة العنف في الستينيات لم تجد الحل أبدا. فقد تحول غضب الأفكار المضادة للثقافة السائدة إلى نزعة استهلاكية، وخيارات لأسلوب الحياة، وتفضيلات موسيقية بدلا من التزامات سياسية، لكن لم تختف مشكلات العرق والحرب والفقر والعلاقات بين الجنسين.

وربما يتعلق الأمر بمجرد حجم جيل ارتفاع نسبة المواليد بعد الحرب العالمية الثانية، وهذه قوة ديمغرافية مارست التأثير الجاذب في السياسة نفسه الذي مارسته في الميادين الأخرى جميعا، بدءا بالسوق وانتهاء بـ «الفياغرا»، مرورا بعدد الأبطال الفائزين الذين وضعتهم الشركات المصنعة للسيارات في سياراتها.

ومهما كان التفسير، سوف ترسم الخطوط الفاصلة بين الجمهوري والديمقراطي، والليبرالي والمحافظ بتعابير أيديولوجية أكثر حدة ودقة بعد رونالد ريغان. ويصدق

هـذا بالطبـع على القضايـا الخلافية المتفجرة فيمـا يتعلق بتمثيل النسـاء والأقليات (المسـاواة في الاستخـدام مثـلا)، والجريمـة، والرعايـة الاجتماعيـة، والإجهاض، والصـلاة في المدارس، وجميعها استطالات لمعارك سابقة. لكنها أصبحت تنطبق الآن أيضـا على كل قضية أخرى، كبيرة أو صغيرة، داخلية أو خارجية، حيث تقلصت كلها إلى لائحـة من إما/ أو، مع أو ضد، وخيارات جاهـزة مستمدة من الخطب السياسية التي تناقلتها وسائل الإعلام. لم تعد السياسة الاقتصادية مسألة تتعلق بإقامة التوازن بين الأهداف المتنافسة للإنتاجية وعدالة التوزيع، بين تضخيم الكعكة وتقسيمها. أنت إمـا مع خفض الضرائب أو رفعها، مع الحكومة التدخلية في كل شيء أو الحكومة التي تتبـع سياسة عدم التدخـل. لم تعد السياسة البيئية مسألة تـوازن بين حماية مواردنا الطبيعيـة ومطالـب الاقتصاد الحديـث؛ فإما أن تؤيد التطوير غـير المنضبط، وحفر واستنفـاد المناجم وغيرها، أو تدعم البيروقراطية الخانقة والروتين الكابح للنمو. في السياسة، أصبح التبسيط فضيلة.

في بعض الأحيـان أظن أن الزعماء الجمهوريين أنفسهـم الذين جاؤوا بعد ريغان مباشـرة لم يشعروا بالارتياح التام إزاء الوجهة التـي اتخذتها السياسة. فوفقا لقادة مثل جورج بوش الأب وبوب دول، بدا الخطاب الاستقطابي وسياسة الاستياء والاعتراض مفروضين فرضا على الدوام، طريقة لاقتناص الناخبين من القاعدة الديمقراطية لا وصفة للحكم بالضرورة.

لكـن فيما يتعلـق بالجيل من الناشطـين المحافظين الذين سيصعـدون قريبا إلى السلطـة، مثـل نيـوت غينغريتشـ وكارل روف وغروفـر نوركويست ورالـف ريد، كان الخطـاب الناري أكثر من مجرد إستراتيجية للحملات الانتخابية. فقد آمنوا حقا بما يقولـون، وما يرفعون من شعارات مثل «لا ضرائب جديدة» أو «نحن أمة مسيحية» وفي الحقيقة، فإن هذه القيادة المحافظة الجديدة، بعقائدها ومبادئها المتصلبة، وأسلوبها القائـم على القطـع والحرق (ثم الزرع)، والإحساس المغـالي بالتعرض للظلم، تذكر بطريقـة غريبة ببعض زعمـاء اليسار الجديد خـلال الستينيـات. ومثلما هي الحال مـع النظـراء اليساريين، رأت هذه الطليعة الجديدة لليمـين السياسة بوصفها مباراة

تنافسية لا بين الرؤى السياسية المتصارعة فقط، بل بين الخير والشر أيضا. فقد بدأ الناشطون من الحزبين كليهما بوضع وتطوير اختبارات صارمة، وتنظيم قوائم ولوائح بأسماء المؤيدين المتشددين، وهذا جعل الديمقراطي الذي يضع الإجهاض موضع المساءلة يشعر بالوحدة باطراد، والجمهوري المنادي بالسيطرة على انتشار الأسلحة يشعر بالعزلة والإقصاء. في هذا الصراع الثنوي (بين الخير والشر)، يبدو أي تنازل وهنا وأي تسوية ضعفا، ويجب معاقبة كل من يلجأ إليهما أو طرده وتصفيته. إما أن تكون معنا أو علينا. عليك أن تختار معسكرك.

من مساهمات بيل كلينتون الفريدة محاولته السمو على هذا الخلاف الأيديولوجي المستحكم، مدركا لا مجرد الفائدة التي تعود على الجمهوريين بتصنيف الناس إلى «محافظين» و«ليبراليين» كما أصبح يعني، بل عدم كفاية هذه التصنيفات للتصدي للمشكلات التي نواجهها. فخلال حملته الانتخابية الأولى، كانت إشاراته أحيانا إلى غدر الديمقراطيين الذين أيدوا ريغان تبدو خرقاء ومفضوحة («ماذا حصل للأخت سولجاه؟»)، أو تفتقد التعاطف والإحساس إلى حد مرعب (السماح للجدل حول إعدام سجين متخلف عقليا بالظهور عشية انتخابات تمهيدية مهمة). وخلال أول سنتين من ولايته، أجبر على التخلي عن بعض من العناصر الجوهرية في برامجه السياسية ـ الرعاية الصحية الشاملة، والاستثمار الجريء في التعليم والتدريب ـ التي ربما عكست بصورة حاسمة النزعات البعيدة المدى التي أضعفت وضع العائلات العاملة في الاقتصاد الجديد.

ومع ذلك، فهم غريزيا زيف الخيارات المعروضة على الشعب الأمريكي. فقد رأى أن الإنفاق والتنظيم الحكومي يمكن أن يمثلا، عند تصميمهما بأسلوب صحيح، مكونات حيوية، لا كوابح، للنمو الاقتصادي، وكيف يمكن للانضباط المالي وضبط الأسواق أن يساعدا في تشجيع وتعزيز العدالة الاجتماعية. وأدرك أن الحاجة إلى محاربة الفقر لا تتطلب المسؤولية المجتمعية فقط بل المسؤولية الشخصية أيضا. في برنامجه السياسي، إن لم يكن في سياسته اليومية، تجاوز «الطريق الثالث» الذي تبناه كلينتون الفارق التقسيمي، فقد استفاد من الموقف البراغماتي غير الإيديولوجي للغالبية العظمى من الأمريكيين.

في الحقيقة، وبحلول نهاية ولاية كلينتون، تمتعت سياساته ـ التقدمية وإن كانت معتدلة في أهدافها ـ بتأييد شعبي واسع. على الصعيد السياسي، انتزع من الحزب الديمقراطي بعض التجاوزات المغالية التي منعته من الفوز في الانتخابات. لكنه فشل، على الرغم من انتعاش الاقتصاد، في ترجمة السياسات التي تحظى بالشعبية إلى ما يشابه تحالفا حكوميا يتناول الصعوبات الديمغرافية التي كان الديمقراطيون يواجهونها (خصوصا التحول في النمو السكاني إلى جنوب جمهوري راسخ على نحو متزايد) والمزايا البنيوية التي تمتع بها الجمهوريون في مجلس الشيوخ، حيث عادل صوتان لعضوين جمهوريين عن ولاية وايومنغ التي يبلغ عدد سكانها 493، 782 صوتين لعضوين ديمقراطيين عن كاليفورنيا، التي يبلغ عدد سكانها 33،871،648 نسمة.

لكن الفشل أيضا يشهد على مهارة غينغريتش وروف ونوركويست وأمثالهم وقدرتهم على ترسيخ ومأسسة الحركة المحافظة. فقد استفادوا من الموارد غير المحدودة للشركات الراعية والمتبرعين الأثرياء لإيجاد شبكة من المستشارين ومنافذ وسائل الإعلام. واستخدموا أحدث التقانات في مهمة حشد وتعبئة قواعدهم الجماهيرية، وقوتهم المركزة في مجلس النواب لتعزيز وتقوية الانضباط الحزبي.

وأدركوا تهديد كلينتون لرؤيتهم القائمة على أغلبية محافظة على المدى الطويل، وهذا يساعد في تفسير الحماس والعنف في مطاردته. ويفسر أيضا السبب وراء استثمار ذاك الوقت الطويل في مهاجمة مبادئه الأخلاقية، فإذا لم تكن سياسات كلينتون راديكالية تماما، فقد ثبت أن سيرته الذاتية (المسلسل الطويل لمسودة الرسالة، نفخ الماريجوانا، فكر مثقفي جامعات الساحل الشمالي الشرقي، الزوجة المهنية التي لا تعرف خبز الفطائر، والأهم: الجنس) ذات منفعة مثالية للقاعدة المحافظة. فمع ما يكفي من التكرار، وتحريف الحقائق، والدليل الدامغ والنهائي على هفوات وأخطاء الرئيس الشخصية، تحول كلينتون إلى نموذج يجسد ليبرالية الستينيات التي ساعدت في تحفيز الحركة المحافظة أصلا. ولربما كانت نتيجة صراع كلينتون مع تلك الحركة التعادل، لكنها ستخرج أشد قوة منه ـ وخلال ولاية جورج بوش الأولى، سوف تستولي الحركة على الحكم في الولايات المتحدة.

أعرف أن أسلوب رواية هذه القصة مبالغ في التنظيم والترتيب. فهو يتجاهل الخيوط والنزعات الحاسمة في السرد التاريخي ـ كيف أثر انحطاط وركود التصنيع وطرد ريغان للمراقبين الجويين تأثيرا حاسما، وجارحا، في الحركة العمالية الأمريكية؛ وكيف ضمن إيجاد مناطق أغلبية/ أقلية في المناطق الانتخابية في الجنوب مزيدا من الممثلين السود وقلص مقاعد الديمقراطيين في الوقت ذاته؛ والافتقار إلى التعاون بين كلينتون والديمقراطيين في الكونغرس، حيث أصيبوا بالترهل وقنعوا بحالهم ولم يدركوا أنهم في معركة. ولا يصور الدرجة التي وصل إليها التقدم في إعادة رسم الدوائر الانتخابية في استقطاب الكونغرس، أو مدى كفاءة المال والدعايات التلفزيونية السلبية في تسميم الجو.

ومع ذلك، حين أفكر بما قاله لي في تلك الأمسية ذاك المساعد العجوز المطلع على أسرار واشنطن، وأتأمل في عمل جورج كينان أو جورج مارشال، وأقرأ خطب أمثال بوبي كنيدي أو ايفريت ديركسن، لا أستطيع منع نفسي من الشعور بأن سياسة هذه الأيام تعاني من حالة من توقف التطور. ففي نظر هؤلاء الرجال لم تكن القضايا التي تواجهها أمريكا مجردة ونظرية، ومن ثم لم تكن بسيطة. قد تكون الحرب شرا لا بد منه. ويمكن للاقتصادات أن تنهار على الرغم من أفضل الخطط الموضوعة. وقد يعمل الناس بجد ودأب طوال حياتهم ومع ذلك يخسرون كل شيء.

وفيما يتعلق بالجيل التالي من الزعماء، الذين ترعرعوا في بيئة مريحة نسبيا، أعطت التجارب والخبرات المختلفة موقفا مختلفا إزاء السياسة. ففي الجدل الذي احتدم بين كلينتون وغينغريتش، وفي انتخابات عامي 2002 و2004، شعرت أحيانا كأنني أشاهد دراما نفسية لجيل حقبة زيادة المواليد *، ـ حكاية تجذرت في الأحقاد وخطط الانتقام القديمة التي رسمت في حفنة من الجامعات قبل زمن طويل ـ تمثل على المسرح الوطني. الانتصارات التي حققها جيل الستينيات ــ منح حق المواطنة الكاملة للنساء والأقليات، تقوية وتعزيز الحقوق الفردية والرغبة الإيجابية في مساءلة السلطة ـ جعلت أمريكا في وضع أفضل بكثير لجميع مواطنيها. لكن ما ضاع

* حقبة امتدت في الولايات المتحدة بين عامي 1946 – 1965 تقريبا وشهدت ارتفاعا حادا في عدد المواليد. (م)

في العملية، ولم يستبدل حتى الآن، تلك الافتراضات المشتركة ـ تلك النوعية من الثقة والشعور بالزمالة ـ التي تجمعنا معا كأمريكيين.

إذن، أيـن يتركنا ذلـك كله؟ نظريا، ربما ينتج الحزب الجمهوري نسخة خاصة به عـن كلينتون، على هيئة زعيم من يمين الوسط يعتمد علـى السياسة المالية المحافظة لكلينتـون مع التحرك بجرأة أكبر مـن أجل ترميم البيروقراطية الاتحادية المتصدعة وتجريـب حلول مرتكزة على السـوق أو الدين للسياسـة الاجتماعية. وفي الحقيقة لم يظهـر هذا الزعيم بعد. فلا يسهم جميع المسؤولـين الجمهوريين المنتخبين في مبادئ الحركة المحافظـة الحالية. في مجلسي النواب والشيوخ كليهما، وفي عواصم الولايات في شتـى أنحـاء البلاد، هنالك هؤلاء الذيـن يتشبثون بالفضائـل المحافظة التقليدية القائمة على الاعتدال وضبط النفس ـ رجالاً ونساءً يدركون أن مراكمة الدين لتمويل التخفيضات الضريبية للأثرياء أمر طائش ومتهور وغير مسؤول، وأن تخفيض العجز لا يمكن أن يحدث على حساب الفقراء، وأن فصل الكنيسة عن الدولة يحمي الكنيسة والدولـة معـا، وأن الاعتدال والنزعـة المحافظـة لا يتصادمان بالضـرورة، وأن على السياسة الخارجية الارتكاز على حقائق واقعية لا التعلل بالآمال والأمنيات.

لكـن هؤلاء الجمهوريين ليسـوا أولئك الذين دفعوا بقوتهـم الجدل المحتدم طوال السنـوات الســت الأخيرة. فبـدلا من «النزعـة المحافظـة التراحمية» التـي وعد بها بوش في حملتـه الانتخابية عـام 2000، فإن ما يسـم الجوهـر الأيديولوجي للحزب الجمهـوري اليوم هو النزعـة الإطلاقية لا المحافظة. هنالـك النظرية المطلقة للسوق الحر، وأيديولوجية إلغاء الضرائب والقوانين والأنظمة وشبكة الأمان ـ في الحقيقة، لا توجد سلطة حكومية فيما وراء ما هو مطلوب لحماية الملكية الخاصة وتوفير الميزانية اللازمة للدفاع الوطني.

هنالـك الإطلاقيـة الدينية لليمين المسيحـي، وهي حركة اكتسبت قـوة الدفع من القضيـة الصعبة التي لا يمكن إنكارها لكنها سرعان مـا امتدت لتشمل مجالا أوسع: الإجهاض؛ إذ تصر بإلحاح لا على أن المسيحية هي الديانة المهيمنة على أمريكا فقط، بل على وجوب أن يوجه مذهب خاص وأصولي من هذه الديانة السياسة العامة، ويتجاوز

أي مصدر بديل للفهم، بغض النظر هل تمثل في كتابات اللاهوتيين الليبراليين، أو مكتشفات الأكاديمية الوطنية للعلوم، أو كلمات توماس جيفرسون.

وهنالك الاعتقاد المطلق بسلطة إرادة الأغلبية، أو على الأقل أولئك الذين يزعمون امتلاك القوة والسلطة باسم الأغلبية ــ ازدراء لتلك الكوابح المؤسسية (المحاكم، الدستور، الصحافة، معاهدات جنيف، قوانين وأحكام مجلس الشيوخ، التقاليد الناظمة لتقسيم المناطق الانتخابية) التي يمكن أن تبطئ المسيرة العنيدة نحو «المدينة السماوية»

وبالطبع هنالك الذين يميلون نحو تبني نزعة متزمتة مشابهة في الحزب الديمقراطي. لكنهم لا يقتربون أبدا من امتلاك السلطة التي يتمتع بها روف أو دي لاي، السلطة التي تستولي على الحزب، وتحشد فيه الأنصار والموالين، وتحول بعض أكثر أفكارها تطرفا إلى قوانين. إن انتشار الاختلافات المناطقية والاثنية والاقتصادية داخل الحزب، والخريطة الانتخابية والبنية التكوينية لمجلس الشيوخ، والحاجة إلى جمع الأموال من النخب الاقتصادية لتمويل الانتخابات ـ تميل جميعها نحو منع أولئك الديمقراطيين المسؤولين من الانحراف بعيدا عن الوسط والمركز. وفي الحقيقة، لا أعرف سوى قلة قليلة من الديمقراطيين الذين تنطبق عليهم تماما الصورة الكاريكاتورية الليبرالية؛ فجون كيري يؤمن بالحفاظ على تفوق القوة العسكرية الأمريكية، وهيلاري كلينتون تؤمن بفضائل الرأسمالية، وجميع الأعضاء الديمقراطيين السود في مجلس الشيوخ تقريبا يؤمنون بأن المسيح مات من أجل التكفير عن خطاياهم.

بدلا من ذلك، نعاني نحن الديمقراطيون من التشوش والارتباك. هنالك الذين ما يزالون يدافعون عن الدين كما كان قديما، وينافحون عن كل «برنامج جديد» و«مجتمع عظيم» في وجه التعديات الجمهورية، وينالون نسبة 100% من تقديرات مجموعة الضغط والتمثيل الليبرالية. لكن هذه الجهود تعاني من الإنهاك على ما يبدو، في خضم لعبة دفاعية مستمرة، وتفتقر إلى الطاقة والأفكار الخلاقة اللازمة للتعامل مع ظروف العولمة المتغيرة، أو مع الأحياء الداخلية المعزولة في المدن الأمريكية.

بعض الديمقراطيين يتبنــون مقاربة أكثر قربا من «الوسطية»، على أساس أن الموقف الوسطــي المعتدل إزاء القيادة المحافظــة يعني أنهم يتصرفون بمنطق معقول ـ لكنهم يخفقون في ملاحظة أنهم في كل سنة تمر يتخلون عن مزيد من الأرض. على الصعيد الفــردي، يقــترح المشرعون والمرشحــون الديمقراطيــون جملة من الأفــكار المنطقية وإن تكــن زائــدة عن الحاجة، فيما يتعلق بالطاقة والتعليــم والرعاية الصحية والأمن الوطني، على أمل أن تضيف جميعا إلى شيء يشابه فلسفة للحكم.

لكــن الحزب الديمقراطي على الأغلب أصبح حزب ردة الفعل. ففي ردة فعله على حــرب سيئــة التخطيــط والتنفيذ، نبدو وكأننــا نشكك في كل عمــل عسكري. وفي ردة فعلــه علــى أولئك الذين يزعمــون أن السوق يمكــن أن يعالج جميع الشــرور والآفات، نعارض الجهود المبذولة لاستخدام مبادئ السوق للتصدي للمشكلات الضاغطة. وفي ردة فعلــه على هيمنة الدين وانتشاره، نساوي بــين التسامح والعلمانية، ونتجنب اللغة الأخلاقيــة التي يمكن أن تساعد في إشبــاع سياساتنا بمعنى أوسع وأكبر. نحن نخسر الانتخابات ونأمــل أن تجهض المحاكم مخططات الجمهوريــين. نخسر حكم المحكمة وننتظر تفجر فضيحة في البيت الأبيض.

ونشعر على نحو متزايد بالحاجة إلى مضاهاة اليمين الجمهوري في الصوت المرتفع المسمــوع والأساليب التكتيكية المتشددة التــي لا تعرف الرحمة. فالحكمة المقبولة التي توجه العديد من مجموعــات الضغط والنــاشطين الديمقراطيين هذه الأيام تبدو على الصورة التالية: تمكن الحــزب الجمهوري من الفوز بالانتخابات باستمرار لا بتوسيع قاعدتــه بل بأبلسة الديمقراطيــين والطعن بهم وتشويه سمعتهــم، ودق الأسافين بين الناخبــين، وتنشيط جناحه اليميني، ومعاقبة من ينحرف عن خط الحزب. فإذا أراد الديمقراطيون العودة إلى السلطة، عليهم تبني المقاربة ذاتها.

أتفهــم الإحباط الذي يعاني منه هــؤلاء النــاشطون. فقدرة الجمهوريين على الفوز بشكل متكرر على أساس استقطاب الحملات الانتخابية مؤثرة ومشهودة فعلا. وأدرك أخطــار المراوغــة والمفارقة في وجه حماسة الحركة المحافظــة. وعلى الأقل في ذهني، هنالك جملة من سياسات إدارة بوش تبرر الاستياء والسخط.

لكن في نهاية المطاف، أعتقد أن أي محاولة يقوم بها الديمقراطيون لتبني إستراتيجية حزبية وأيديولوجية أكثر حدة وشدة تسيء فهم اللحظة التي نعيشها. وأنا مقتنع بأننا حين نبالغ أو نعاني أو نؤبلس، أو نبسط أو نعقد قضيتنا، فسوف نخسر. وحين نقلص المحتوى الفكري للجدل السياسي، سوف نخسر. لأن المسعى وراء النقاء الأيديولوجي، والتشدد المتزمت، والتوقع المجرد للجدل السياسي الراهن، هو بالضبط ما يمنعنا من العثور على طرق جديدة للتصدي للتحديات التي تواجهنا كوطن وبلد. فهو ما يحاصرنا في إسار التفكير القائم على مبدأ «إما/ أو»: الفكرة التي تقول إننا إما أن نخضع لحكومة تدخلية أو نبقى دون حكومة؛ الافتراض الذي يشير إلى أننا إما أن نقبل حرمان ستة وأربعين مليون أمريكي من الضمان الصحي أو نعتنق مبدأ «الطب الاشتراكي»

مثل هذا التفكير النظري الذي يتعذر تطبيقه عمليا والسياسة الحزبية الصارخة هما اللذان أبعدا الأمريكيين عن السياسة. ليست هذه مشكلة لليمين؛ فالناخبون المستقطبون ـ أو الذين يرفضون الحزبين كليهما بسبب لهجة الجدل الكريهة والكاذبة ـ يناسبون تماما أولئك الذين يسعون إلى تحطيم فكرة الحكم. فعلى الرغم من كل شيء، يعد الناخب المتشكك ناخبا متمركزا على الذات ومهتما بشؤونها.

لكن أولئك الذين يعتقدون أن للحكومة دورا تؤديه في ترويج وتشجيع فرص الازدهار والرخاء للأمريكيين كلهم، لا يناسبهم استقطاب الناخبين، فالحصول على أغلبية ديمقراطية ليس كافيا. ما نحتاجه هو أغلبية عريضة من الأمريكيين ـ ديمقراطيين وجمهوريين ومستقلين من ذوي النوايا الحسنة ـ الذين يعاودون الانخراط في مشروع التجديد الوطني، ويرون مصلحتهم الخاصة مرتبطة برباط لا تنفصم عراه مع مصالح الآخرين.

لا أعاني توهم الاعتقاد أن بناء مثل هذه الأغلبية الناشطة مهمة يسيرة، لكن لأن مهمة حل مشكلات أمريكا ستكون صعبة فإن هذا ما يجب علينا فعله. وأعرف أنه يتطلب خيارات صعبة، وتضحيات كبرى. وإلى أن ينفتح الزعماء السياسيون على الأفكار الجديدة (وليس تغليفها بغلاف جديد) لن نتمكن من تغيير ما يكفي

من القلوب والعقول لإطلاق سياسة جدية للطاقة أو تخفيض العجز في الميزانية. ولن نتمتع بالدعم الشعبي المطلوب لابتكار سياسة خارجية تتصدى لتحديات العولمة أو الإرهاب دون اللجوء إلى الانعزالية أو إضعاف الحريات المدنية. ولن نملك تفويضا بإصلاح نظام الرعاية الصحية المنهار. ولن نحظى بالتأييد السياسي العريض أو بالإستراتيجيات الفعالة المطلوبة لانتشال أعداد كبيرة من مواطنينا من وهدة الفقر.

قدمت الحجة ذاتها في رسالة بعثت بها إلى موقع يساري على الويب (Daily Kos) في أيلول/ سبتمبر 2005، بعد أن قام عدد من جماعات الضغط والناشطين بمهاجمة بعض زملائي الديمقراطيين بسبب التصويت على تثبيت قاضي المحكمة العليا جون روبرتس. شعر العاملون معي ببعض التوتر من الفكرة؛ لأنني صوت ضد تعيين روبرتس، ولم يجدوا سببا وجيها لتهييج مثل هذا الجزء القوي والمعبر من القاعدة الديمقراطية. لكنني بدأت أقدر أهمية الحوار الذي يعرضه الموقع، وفي الأيام اللاحقة على عرض رسالتي، بأسلوب ديمقراطي حقيقي، علق عليها أكثر من ستمئة شخص. بعضهم وافقني الرأي. وغيرهم اعتقد أنني مبالغ في المثالية ـ ذلك النوع الذي أقترحه من السياسة لا يمكن أن ينجح في مواجهة آلة العلاقات العامة الجمهورية. وظن عدد كبير منهم أنني «مرسل» من نخب واشنطن لوقف ومناهضة الانشقاق في الصفوف، أو أنني أقمت في واشنطن مدة طويلة ففقدت الاتصال بالشعب الأمريكي، أو كنت، على حد تعبير أحد التعليقات، مجرد «أحمق»، أو جميع هذه الأمور معا.

لربما يكون النقاد على حق. ربما لا يوجد مهرب من انقسامنا السياسي العميق، وصراع الجيوش بلا نهاية، وأي محاولات لتغيير قواعد الاشتباك ستكون عقيمة. أو ربما بلغت تفاهة وسطحية السياسة نقطة اللاعودة، بحيث أن معظم الناس يرونها بوصفها تسلية أخرى، لعبة، مباراة يؤدي فيها السياسيون دور المصارعين الذين انتفخت بطونهم في حين سيكون المهتمون بها مجرد مشاهدين على المدرجات: نحن نصبغ وجوهنا بالأحمر أو الأزرق ونهتف ونلوح لفريقنا ونطلق صيحات الاستهجان والصفير على الفريق المنافس، وليكن ذلك، فالمهم هو الفوز.

لكنني لا أعتقد بصواب هذه الفكرة. فهناك، كما أقول في سري، المواطنون العاديون الذين نشؤوا في خضم جميع المعارك السياسية والثقافية، لكنهم وجدوا طريقة ـ في حياتهم الخاصة على الأقل ـ للعيش بسلام مع جيرانهم ومع أنفسهم. أتخيل الشاب الجنوبي الأبيض الذي سمع أباه يتحدث عن الزنوج بازدراء لكنه عقد صداقة مع زملائه السود في الشركة ويحاول تعليم وتثقيف ابنه بأسلوب مختلف، ويعتقد أن التمييز العنصري أمر خاطئ، لكنه لا يجد سببا يدعو لدخول ابن طبيب أسود إلى كلية الحقوق قبل ابنه. أو عضو سابق في «الفهود السود» قرر الدخول في مجال العقارات، فابتاع بضعة أبنية في الحي، وقد مل رؤية تجار المخدرات أمام بناياته، مثلما أضناه رفض المصارف منحه قرضا لتوسيع نشاطه التجاري. هنالك الناشطة النسوية التي بلغت منتصف العمر وما زالت تندب عملية الإجهاض التي أجرتها، والمرأة المسيحية المتدينة التي دفعت مالا لإجراء عملية إجهاض لابنتها المراهقة، وملايين النادلات والسكرتيرات (اللاتي يعملن في وظائف مؤقتة) ومساعدات الممرضات والعاملات في وال ـ مارت اللاتي يحبسن أنفاسهن كل شهر أملا في الحصول على ما يكفي من المال لرعاية الأطفال الذين أتين بهم إلى هذا العالم.

أحسب أن عامة الأمريكيين في انتظار سياسة تتمتع بما يكفي من النضج للموازنة بين المثالية والواقعية، والتمييز بين ما يمكن وما لا يمكن التنازل عنه، والاعتراف باحتمال أن يكون الطرف الآخر على صواب في حجته. فهم لا يفهمون دوما الحجج والمجادلات بين اليمين واليسار، والمحافظين والليبراليين، لكنهم يدركون الفارق المميز بين العقيدة الدوغمائية المتزمتة والمنطق البدهي السليم، بين المسؤولية واللامسؤولية، بين الثابت والدائم والزائل والعابر.

ها هم هناك، في انتظار الجمهوريين والديمقراطيين للحاق بركبهم.